إهـــداء الكتـــاب

إلى روح أستاذى الإمـام الشيخ محمد عـبده ـ إلى الرجل العظيم الذى لم تقع عينى على مثله رجاحةَ عقل وسجاحةَ خُلقُ وعبقريةَ ذهن وسموَّ نفس وعظمة رُوح وهمةً تناطح النجوم، وكرَمًا يشامخ الغـيوم، وأدبًا إلهيا من الطراز الأول حتى لكأنما نشـأ فى حضـانة الله ـ إلى الرجل كل الـرجل الذى يحب معـالى الأمـور ولا يحب سفسافها:

تلـذ له الـمـــرُوءة وهـى تؤذى ومن يـعـــشق يـلذ له الـغـــرام

إلى الرجل الذى لم يفزع إليه فازع ولم يستصرخـه مستصرخ إلا كان الصراخ له، إنجـاز مـا أمله ـ إلى الرجل الذى لـو مد الله فـى أجله، وبقى إلى أنه رأى ثمـار غرسه ونتاج عمله، لكان للأديب اليوم شأن غـير هذا الشأن، وحال غير تلك الحال، لأنه عظيم فهو يحب كل عظيم ويُمده ويَشبّه وقدا، ولا يحقد ولا يحسد لأن رئيس القوم لا يحمل الحقدا...

ذهب الذين يعـاش فـى أكنافـهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

* * *

عـالـم أشـبـهـوا القـرود ولكن خـالفـوها فى خـفـة الأرواح

* * *

لهم حـلل حـسـن فـهن بـيض وأخـلاق سـمـجن فـهم سـود

* * *

أنا فـى أمـة تـداركـهـا اللـهـ ـم غـريـب كـصـالح فـى ثمـود

إلى روح أستاذى الذى علمنى وربَّنى وأدبنى فـأحسن بحمد الله تأديبى ـ فكنت خِرِّيجَه ولا فخر، وكنت غرس يديه ونَعمة عَين، وكما ارسل الله إلى صَفيِّه وخِيرته من خلقه سيـدنا محمد بن عـبد الله ـ صلوات الله وتسليماته عليه ـ مَلكين كريمين

سقطا عليه كسقوط الندى وهو يلعب مع اخوته من الرضاعة خلف بيوت ظئره، رضوان الله عليها، فأضجعاه فاستخرجا قلبه فشقاه فتناوشا منه علقة سوداء ثم غسلا قلبه بثلجهما السماوى حتى أنقياه، وكان ذلك كمدرَجة لمقام النبوّة ومهمة الرسالة العظمى ـ أرسل الله إلينا هذا الإمام، وطلع علينا كما يطلع البدر فى دجنات الظلام ونحن فى الأزهر نتعسف الطريق، ونتقحم تلك الجرائيم فهدى من ضلالة، وأنار من ظلمة، وانتاشنا من مَضيق ومُرتَطم، وأقامنا على المناهج النيرة، والمحاج الواضحة وغسل عقولنا حتى أنقى ادرانها، ثم فاض علينا فيضُ علمه وأدبه.

فإلى روح هذا الإمام أهدى هذا الكتاب.

عبد الرحمن البرقوقى

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

حامداً ومصليًا

«أما بعد» فهـذا كتاب وضعته قـديمًا وأسميته «حـضارة العرب فى الأندلس» ولقـد أشرب قلـبى مذ طراءة العـمـر وريعان الـصبى وجن النشـاط حب التـاريخ الإسلامى عامـة وتاريخ هذا الفرع الأندلسى منه خاصة ـ فكان مـما عنيت به فضل عناية، وكان مـما أولعت به الولوع كله، النظر فى تاريخ الأندلس وحضـارة العرب بها منذ افـتتـاحهم إياها إلى أن تأذن الله لهم، وكلب عليـهم الأسبانيـون، وكلح لهم الدهر وجـهه، وتقلـصت ظلال تلك الحضـارة بعـد أن فاء بهـا الفيء على شـرق الأرض وغربهـا ـ وبلغ من همى بهذا التاريخ أنى بعـد أن استوعبت كل ما وصل إلينا من تآليف العرب ذهبت أتلمس ما كتبه مؤرخـو الغرب ومستشرقوه على ذلك المـصر حـتى اقتنيت أمـهات أسـفارهم وعـهدت إلى كـثيـر من أصدقـائى الذين يحـسنون الفرنسيـة والانكليزية أن ينـقلوا إلىَّ كل ما يتـصل بغـرضى من مبـاحث هاتيك الكتب، ومضيت فى ذلك ومضوا فيه حـتى استجمعت الكثير وما يزيد على الكثيـر، ثم خطر الدهر من خطراته ونشـأت ظروف أواخر سنة ١٩١٠ مـيلادية أى قبـيل إخراج «البيان» اضـطرتنى أن أزايل القاهرة وأقيم فى بلدى ـ مـسقط الرأس، ومكان الغـراس، فأفـسح لى ذلك فى الوقت، ومد لـى فى النظر، وبسط فى مطارح التأمل، وأنـى لأتقرى يوما تاريخ أبى الـفداء إذ صدف أن أخـذت عينى هذا الخـبر الذى لا حفل له، والذى يقـتحمـه فى العادة النظر، ولا يكاد يتلفت إليـه، أو يتوقف عليه، وهو ما رواه من «أنه فى سنة ٣٤٥ هجرية عمل عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس مـركبـا كـبيـرا وحشـد فيـه كـثيـراً من بضـائع الاندلس وأرسله إلى بلاد المشرق لتباع هذه البـضائع هناك وتستبدل منها بضائع مشرقـية» ففتحت علىَّ هذه

العبارة أبوابا من وراء أبواب، وامتدت الكلمة فى نفسى حتى خرج من حروفها كتاب، وألهمت أن أضع ما جمعت من علم الاندلس كله فى صدر رحالة مصرى يقوم من الاسكندرية وافداً إلى الاندلس فى مركب الناصر هذا ـ فهو يرى ويسمع ويقص ويدون ويصف ويستعين بما يعلمه وما يراه وما يفتق له الخاطر ويهيئ الفكر ـ فى رسائل يضمنها وصف تلك الحضارة على اختلاف ألوانها، وشتى فنونها، وصف مؤرخ أديب فيلسوف يرحل للتاريخ وفلسفته فيدرسه فى كتبه وفى مواضعه ورجاله وأسبابه وحوادثه، وبذلك يستجمعه من أطرافه، ويحويه من أكنافه، وتم التقدير على أن أضع على لسان هذا الرحالة الذى ذهب إلى الاندلس وأقام فيها زهاء عشرين عاما خمس رسائل يكون عنوان الأولى «من الاسكندرية إلى المرية» والثانية «من المرية إلى قرطبة» والثالثة «مقامى فى قرطبة» والرابعة «العلوم والآداب والفنون فى الاندلس» والخامسة «تقويم الاندلس وتاريخها»... وهو بديهى أنه لا يقدم على هذا العمل مقدم إلا بعد أن يحيط بتاريخ هذا العصر علما، ويقتله كله دراية وفهما، فليس يكفيه أن يكون ملما بتاريخ الاندلس، ولا بتاريخ الدول الإسلامية لهذا العهد، بل لا بد مع ذلك من أن يكون واقفًا على تاريخ الأمم الأخرى المعاصرة، والتى لها علاقة بالدول الإسلامية إذ ذاك مثل الدولة الرومانية وما إليها، وكذلك درست تاريخ هذا العصر من جميع نواحيه، ثم وضعت يدى فى هذا العمل، وأخذت فى كتابة هذه الرسائل ومضيت لطيتى حتى إذا سرت شيئًا طرأ علىّ ما أجاءنى إلى القاهرة وفى تلك الآونة طلع «البيان» وطفقت أنشر فيه نبذاً من هذا الكتاب، وكان المنتظر أن يكون «البيان» بحيث يغرى باتمام الكتاب ونشره كله بين صفحات هذه السنوات التى خلت، ولكن جاء الأمر على حد ما قيل: طلبت بك التكثير فازددت قلة، فلقد استبد بى هذا البيان، واستأثر علىَّ بنفسى استئثاراً، وتدفق فى أذاته، وألح فى سطواته، حتى إنه بعد أن

التهم الوفر أكلا وشربا، ألوى بنفسى[١] قلبًا ولبًا، وتركنى لا أفكر إلا فيه ولا أتشاغل إلا به:

فلو أن لى تسعين قلبًا تشاغلت
جميعًا فلم يفزع إلى غيره قلب

وكذا مصير كل من يمتهن الأدب فى الصحف وبخاصة إذا كان هو صاحب تلك الصحيفة له غُنمها وعليه غرمها، ببلد سقط فيه نجم الآداب الرفيعة وطاش سهمها، وقدما قيل لحكيم إن فلانا رجل عاقل فقال: هل هو متزوج فقيل له نعم فقال: إذن ذهب عقله؛ وعلى هذا القياس لو قيل لى إن فلانا فيلسوف أو عالم أو أديب لقلت هل هو صاحب مجلة فى مصر فإذا قيل نعم قلت إذن ذهب والله فى الذاهبين، فإنه إذا كان المتزوج يجد من هم واحدة وما يكون منها ما لا يدعه لهم نفسه فيذهب بذلك عقله أو بعض عقله فإن صاحب المجلة يصيبه هم المئات إلى الالوف ممن يقرءون ولا يفون بحق ولا عهد فهو ينفق من نفسه وما أعده لنفسه وهم يمحقونه محقًا حتى ينقص بهم على زيادتهم ويقل على كثرتهم ولا يزال ذلك شأنهم وشأنه لا هو يتركهم وعليهم حقه ولا هم يدعونه فى غير هذه الحالة، وبذلك يذهبون بفلسفته وعلمه وأدبه مذاهب العقم، ويبلونه بالاغتمام، ولا عقل مع غم، ولا قلب مع هم، فذهب إذن والله صاحب المجلة وكان من ضياع العقل فى وزن من تزوج لا بزوجة واحدة بل بألف زوجة.

* * *

«وبعد» فهذا هذا ـ وفى هذه الآونة ـ فى هذه الفترة التى احتجب فيها البيان، والتى وجدت فيها نفسى ـ جرى بينى وبين أحد أفاضلنا يوما حديث أفضى إلى ذكر هذا الكتاب، وأنست من هذا الفاضل رغبة حارة صادقة فى تمامه، وطبع ما تم منه إلى الآن فى الاقل على حدة، فكان جواب الفعل أسبق من جواب القول،

(١) يعنى استبد بها.

وقدمت هاتين الرسالتين إلى المطبعة على أن أردفهما قريبًا إن شاء الله بالرسائل الثلاث الباقية، وهاتان الرسالتان يكادان يكونان كتابًا مستقلا، يصح أن ينزلا من الرسائل التالية منزلة مدخل الكتاب من الكتاب.

والآن يجمل بنا أن نقدم بين يدى الناظر فى كتابنا هذا تنبيهات يخلق به أن يلحظها ويتنبه عليها وإليكها:

-١-

يلحظ قارئ هذه الرسائل فى بعض المواطن شيئًا يشبه أن يكون حشوًا أو زيادة أو فضولا أو شططا أو خروجا عن الموضوع أو ما شئت سمه، وذلك مثال كلامنا على الخمر «انظر صفحة ٥٤» وكلامنا على حب الوطن «صفحة ٧٦» فليعلمن القارئ أنَّا لو قصرنا كلامنا فى هذه الرسائل على البحث التاريخى البحت دون تطربتها بمثل هذه المعانى الغضة اللينة المستطرفة التى تستروح إليها النفوس، وتريح على القارئ عازب نشاطه[١] لجاءت كزة جافة ثقيلة مملة، وليس للكاتب اليوم فى أى باب من أبواب العلم والأدب منتدح عن أن يداور القارئ على القراءة ويراوغه[٢] ويحتال بكل ضروب الحيل التى تغريه بالقراءة وتشوقه إلى الاطلاع ما دامت الرءوس كأن بها خبالا، والنفوس كأن بها دائما ملالا على أنه إذا كان الغرض الذى نترامى فيه[٣] بهذه الرسائل هو وصف حضارة العرب فلماذا لا نهتبل هذه الفرصة ونتصدى ـ ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ـ لكل معنى من معانى هذه الحضارة ومبلغ ما وصل إليه العرب فى هذا المعنى، ومن ثم لم نتعرض لمثل ما تعرضنا عبثا، وإنما لنصف لك كل ألوان الحضارة العربية على اختلافها أولا وبالذات، ولننفى عن القارئ ما عساه يلم بساحته من السأم والملال ثانيا وبالعرض.

(١) تريح ترجع وتعيد وعازب غائب.
(٢) داوره على كذا وراوغه أراده عليه.
(٣) كقولهم اليوم نرمى إليه.

-٢-

قد يلمح القارئ من أسلوب هذه الرسائل وطريقة الوصف والتفكير فيها مسحة من روح جيلنا، ويراها مصطبغة بصبغة عصرنا، وهذا وإن لم يكن فى مكنتنا اجتنابه لأنَّا ضرورة كوننا من أبناء هذا الجيل وامتزاج روحه منا بالدم واللحم لا نستطيع الخروج عن كياننا، إلا أنه مع ذلك نكاد نكون قد قصدنا إليه قصداً لأنه يدخل فى باب التطرية التى لا بد منها نفيًا للملل الذى قد يعرو القارئ إذا نحن توخينا أسلوب تلكم العصور توخيا تاما، ولأنه لولا ذلك لما كان ثمت فرق بين هذه الرحلة وبين رحلة قديمة يضعها رحالة حقيقى فى هاتيك العصور، بيد أنَّا مع ذلك قد احتفظنا جهد الاستطاعة باصطلاحات العرب فى أسماء الأعلام والبلدان والاقطار والممالك وما إلى ذلك مع قرنها باسمائها التى تعرف بها اليوم إما فى هامش الرسائل وإما فى صلبها بين أقواس.

-٣-

كل ما كان لغيرنا ونقلناه بلفظه أو بمعناه نبهنا إليه فى هامش الكتاب ومن ثم يكون كل ما لم ننبه إلى مصدره فهو لنا معنى ولفظًا، اللهم الا ما نتمثل به من بيت مشهور أو مثل سائر أو أبيات قد عُرِفَ قائلها، على أنا إذا كنا فى موضع تاريخى أو وصف جغرافى قد نبهنا إلى المصدر الذى اعتمدنا عليه ففى الغالب الكثير تكون العبارة لنا وإنما الذى لغيرنا هو العصارة التاريخية أو الجغرافية وما إليهما، وقد نسهو عن التنبيه إلى المصدر إما لأنا لم نقيد ما ننقل حين النقل فلم نهتد إلى موضعه بعد ذلك وإما لأن ما ننقله من غيرنا إنما نقلناه بواسطة حافظتنا.

-٤-

قد نتمثل فى بعض الأحايين ببيت أو أبيات تأخرت أوقات قائليها عن زمن

الرحلة مثل تمثلنا بأبيات لابن خفاجة أو لابن حمد يس مثلا ونحن فانا لا نرى بأسًا في ذلك ما دامت هاتيك الأزمان متقاربة متشاكلة وحسبنا التنبيه إلى ذلك في هامش الكتاب.

* * *

«أما بعد» فيرحم الله عمرو بن بحر إذ يقول: لا يزال المرء في فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يؤلف كتابًا ـ ويرحم الله القائل: عرض بنات الصلب على الخطاب، أهون من عرض بنات الصدر على ذوى الألباب...

فإذا كنت قد وفقت أو قاربت التوفيق في هذا الكتاب وإلا فحسبي أني لا آلو جهداً ولا أدخر وسعًا، وأني أخلص النية وأراقب الله في كل ما أعمل، على أنه لا كمال في الأرض وإنما الكمال لله وحده، وإليه سبحانه الرغبة في أن يحوط كل ما أعتمل بكلاءته، وأن يغشيه دائمًا بالقبول إنه سميع الدعاء.

عبد الرحمن البرقوقي